سيجموند فرويد
العالم النفساني الكبير
للأستاذ صديق شيبوب

— ٢ —

زاول « فرويد » بعد عودته من فرنسا مهنة الطب بمدينة « فينا » وانصرف إليها يمارسها بالعناية التي اتطبت عليه نفسه والتي بيناها في المقال الماضي

وكان قد عرف قبل رحلته إلى باريس طبيباً يدعى « جوزيف بروير » فانضم إليه بعد أوبته واشتركا في مزاولة مهنتهما

تحدث هذا الطبيب إلى « فرويد » قبيل سفره عن فتاة هستيرية أصيبت بالشلل وغموض القوى الواعية ، وروى له أنه لاحظ أن حالة الفتاة تتحسن كلما استطاعت التحدث علناً عن نفسها . وكان لهذا السبب يصغي في صبر لحديثها عندما تترك فيه المجال لواهمتها الشعورية ، وأنه لاحظ أن اعترافات الفتاة متقطعة ، وأنها تخفي عن قصد أشياء يظهر أنها لعبت في حياتها دوراً هاماً ، وكانت من مسببات علتها . فخطر له أن يستعمل التنويم المغناطيسي على أمل أنها ، وهي معدومة الإرادة في حالة السبات ، تبوح بما تخفيه في يقظتها . وهكذا استطاع أن يعرف من الفتاة أنها بينما كانت تعنى بوالدها المريض أحست في نفسها بمشاعر كبتتها لأسباب أخلاقية فاتخذت هذه المشاعر شكلاً آخر برز في أعراض مرضها . وكانت أعراض الهستيريا تزول كلما باحت بحقيقة الأمر

لم يجد « بروير » في هذه الفتاة غير حادث مرضي استطاع كشف الستار عنه ومعالجته . أما « فرويد » فشعر بغريزته العميقة أن الأمر أشد خطراً مما توهمه صاحبه ، وانتهى من ذلك إلى هذه الحقيقة وهي أن « قوى النفس تتحول عن مراكزها » وأنه يجب أن يوجد في العقل غير الواعي قوة عاملة تحول الشعور عن مجراه الطبيعي وتقذف به إلى مظاهر نفسية أو طبيعية

ولما كان هذا العارض الذي كشف عنه « بروير » يؤيد الاختبارات التي شاهدها « فرويد » بباريس ويبرزها في صورة جديدة ، استقر رأي الزميلين على متابعة أبحاثهما التي قصدا إليها في طريق مظلمة وعرة . وهكذا وضعا كتاب « العمل النفسي في عوارض الهستيريا » الذي ظهر سنة ١٨٩٣ و « رسالة في الهستيريا » ظهرت سنة ١٨٩٥ فكشفا عن حقيقة هذا الداء في كتابيهما وأبرزاه تحت ضوء جديد

قررا للمرة الأولى في علم الطب أن الهستيريا ليست من علل الجسم الأصيلة ولكنها اضطراب ناتج عن صراع داخلي لا يشعر به العليل نفسه وأن تحت ضغط هذا الصراع تظهر عوارض هذا الداء ، وهو انحراف مرضي

تنتج إذن الاضطرابات النفسية عن كبت العواطف كما تنتج الحمى عن التهاب داخلي ، وكما تهبط درجة حرارة المحموم عندما يجد الالتهاب منفذاً ، كذلك تزول أعراض الهستيريا عندما يستطاع التفريج عن العواطف المكبوتة « والسير بها في السبل الطبيعية حيث تتركز القوى الشعورية منبسطة في حرية بعد أن كانت ملتوية أو بعبارة أخرى مخنوقة ، وكان هذا الخنق سبباً لاستمرار عوارض الداء »

على أن الزميلين ، « فرويد » و « بروير » انفصلا بعد لأي لأنهما كانا قد وصلا إلى نقطة لم يتفقا عليها . كان « بروير » طبيباً يخشى خطر الاعتماد المطلق على علم النفس ويصرف همه إلى وسائل معالجة الهستيريا والشفاء من أعراضها ، بينما صار « فرويد » الذي اكتشف في مواهبه ميلاً إلى علم النفس مأخوذاً بالعوارض النفسية وبالأسرار التي يكشف عنها تبدل العواطف ، وقد أثار فضوله أن هذه العواطف تكبت فتقوم مقامها عوارض جسمية فاستمر في البحث حتى بدا له أن هذه الظواهر تصح أساساً للتحليل النفسي ، وأنها تفتح أبواب عالم جديد قائم على العقل غير الواعي ، فوقف حياته منذ ذلك العهد على « درس المناطق غير الواعية في الحياة والنفس » ، وكان ذلك أساساً لمذهبه الجديد الذي نفصله فيما يلي :

كان علماء النفس قبل « فرويد » يعرفون أن الطاقة النفسية لا تتلاشى كلها فى عمل العقل الواعى ، وأن هناك قوة أخرى خفية تؤثر فى حياتنا وتفكيرنا ، ولكنهم كانوا يجهلون هذه القوة ولا يحاولون إدخال العقل غير الواعى فى محيط العلم والتجربة

كان علم النفس أيامئذ ، أى قبل سنة ١٩٠٠ ، وهو العهد الذى قرر فيه « فرويد » نظرياته ، لا يهتم بالأعراض النفسية إلا بقدر ما تدخل فى دائرة الوعى الواضحة ، فلا تدرس العاطفة إلا إذا ظهرت تماماً ، ولا يعنى بالإرادة إلا إذا أملت مشيئتها فعلاً ؛ وهكذا كان علم النفس يستبعد كل الظواهر النفسية التى لا تطفو على سطح الحياة الواعية فى شكل بارز

رأى « فرويد » أن العقل الواعى لا يعد مصدراً لكل عمل نفسى ، وأن العقل غير الواعى ليس طبقة سفلى يختلف عن الأول ويخضع له ؛ وقرر أن كل الأعمال النفسية ناتجة أولاً عن العقل غير الواعى ، أو ما دعوه بالتربية العقل الباطن ، وأن الأعمال التى تنسبها لا تختلف عن الأولى ولا تتفوق عليها ، لأن وعيها نتيجة عمل خارجى . ومثل هذا كمثل النور حين يضىء بعض الأشياء ، فهذه الأشياء موجودة وجوداً مادياً ، ولكن النور يجعلنا نراها فليس النور الذى أوجدها لأنها عالقة بالعالم الطبيعى سواء أكانت ظاهرة لتسليط النور عليها ، أم مختفية تحت ستار الظلام حيث نستطيع أن نتعرف باللمس شكلها وحجمها

وهكذا يجد « فرويد » أن « غير الواعى » لا يعنى المجهول أو « غير المستطاع الوصول إليه » ، كما كان يظن العلماء من قبل وقد اعتقدوا أن فى النفس خزاناً مظلماً راكداً أو مستودعاً يحوى النسيات والمختلفات ، تستمد الذاكرة منه بين وقت وآخر أشياء بمعاونة العقل الواعى . وكانوا يعتقدون كذلك أن عالم غير الواعى عاطل فى نفسه لا عمل له ولا شأن كأنه حياة انصرم عهدها وماض مدفون لا أثر له فى عواطفنا الحاضرة

أما فرويد ، فقد رأى أن غير الواعى ليس من رواسب النفس بل هو مادتها الأولى ولكنه لا يصل إلى سطحها المستنار بالوعى غير جزء يسير منه . ولا يعنى على بعض أجزائه أنه عقل ميت أو أن لا قوة له ، لأنه فى الحقيقة حى عامل يؤثر فى تفكيرنا وعواطفنا ، ولعله أقوى العوامل فى حياتنا النفسية . وعليه فإنه يخطئ من لا يحسب حساب الإرادة غير الواعية فى كل ما نعمله ونمليه ، لأنه ينفى العنصر الأصيل فى قوانا الداخلية

ليست حياتنا مظهراً حراً للعقل الواعى يسيرها كما يشاء ، وليس عالمنا ملكا لإرادة واعية تسيطر عليه . إن من ظلمات العقل الباطن تنبع الأنوار التى تلقى ضوءها القوى على أعمالنا ، وفى أعماق عالم الغرائز تتألف العواصف التى تسيطر علينا وتغير المجرى الطبيعى للحياة التى كان مقدراً لنا أن نعيشها

تلتقى فى هذه الأعماق المظلمة من طبقات النفس البشرية العواطف التى مرت بالوعى فى حين من الزمان ، ورغبات الطفولة النفسية التى يظن أنها دفنت إلى الأبد ، والمخاوف والأهوال التى قيل إنها زالت وعى أثرها ، وهى جميعها تضطرب حيرى قلقة عطشى إلى الظهور بواسطة الأعصاب

لا يعيش هذا جميعه فى أعماق النفس فحسب ، بل هناك أيضاً شهوات الأجيال التى انقرضت واحداً بعد واحد صعداً إلى عهد الهمجية ، فتلتقى فيها الذاتية الهمجية بالذاتية المتحضرة وفجأة تتحرك الغرائز الأولية الجامحة فتمزق سجوف المدنية الشفافة وتبرز قوية عنيفة من العالم غير الواعى إلى العالم الواعى وتحاول أن تنال قسطها من العمل الحر ، فيتولد صراع عنيف بين عاطفتنا الأخلاقية المتمدينة وبين غريزة اللذة الهمجية الدفينة فينا . ولا شك أن كل كلمة نتفوه بها ، وكل حركة نأتيها ، مظاهر لهذا الصراع الذى تحاول فيه العاطفة المتمدينة التغلب على غريزة اللذة ، بل إن حياتنا النفسية كلها صراع دائم مؤثر بين الإرادة الواعية وغير الواعية ، وبين العقل المسؤول والغريزة غير المسؤولة

وقد شاء « فرويد » من هذا جميعه أن يفهم كل إنسان معنى اندفاعاته غير الواعية ، لأنه ليس من المستطاع معرفة عواطف الإنسان إلا إذا أنيرت طبقات نفسه المظلمة ، ولا يعرف أسباب اضطراباته إلا إذا انحدر إلى أعماق نفسه ، وليست مهمة العالم